الفصل الرابع

مرحلة الفتح وقيام الدولة العباسية

(أ) مرحلة الفتح.

(ب) المعركة الأولى بين الفريقين.

(ج) الصراع بين المضريين واليمانيين وسياسة أبي مسلم تجاههما.

(د) نحو مرو عاصمة إقليم خراسان.

(هـ) مصير ابني الكرماني وشيبان الحروري.

(و) نهاية نصر ومتابعة الفتح.

(ز) نحو الكوفة.

(ح) تحقيق مقتل قحطبة.

(أ) مرحلة الفتح :

وقد كان أبو مسلم على يقين من أن إعلان الدعوة هكذا في خراسان سوف يحمل عاملها من قبل الدولة الأموية على مكاشفته العداء، بل وعلى حربه وقتاله إذا لزم الأمر.

ومن أجل هذا رأينا أبا مسلم يأخذ للأمر أهبته ويعد له عدته، ويتخذ من الإجراءات ما يراه كافياً لحماية الدعوة والدعاة من خطر ابن سيار وغيره من القبائل العربية التي لم تقبل الانضمام إلى صفوف الشيعة.

فأقام معسكراً له في سفيذنج[1] وخندق عليه ورتب القادة والأعوان وأمر محرز بن إبراهيم أن يخندق خندقاً بجيرنج[2]، ويجمع إليه أصحابه ومن نزع إليه من الشيعة، ويقطع مادة نصر بن سيار وأرسل له كتاباً يقول فيه[3] « أما بعد فإن الله تباركت أسماؤه وتعالى ذكره عير أقواماً في القرآن فقال: ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ** ﴾(فاطر ٤٣). وقد أثار كتاب أبي مسلم هذا

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣٥٦.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٤، ص ٣٠٠.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣٥٧ - ٣٥٨.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٤، ص ٣٠٠.
جيرنج: بالكسر وبعد الراء المفتوحة نون ساكنة وجيم: وهي بلدة من نواحي مرو على نهرها قنطرة عظيمة عليها بعض أسواقها.
ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص ١٩٩.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣٥٧ - ٣٥٨.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٤، ص ٣٠٠ - ٣٠١.

انتباه نصر، وكسر له إحدى عينيه وقال: هذا كتاب له جواب. والسبب في هذا ليس هو الصيغة التي كتب بها وحسب، ولكنَّ أبا مسلم منذ أن دخل خراسان كان إذا كتب إلى نصر قدم اسمه على اسمه، وفي هذا الكتاب عدل عن هذا النهج وبدأ بنفسه أولاً.

ومعنى هذا أن أمره قد استغلظ، وأن رجاله وأعوانه قد أصبحوا من الكثرة بحيث يمكنه مواجهة الرجل ومكاثرته على عمله، ولست أدري لماذا لم يحدد لنا على وجه اليقين متى كتب أبو مسلم هذا الكتاب إلى نصر. ويقول أبو الخطاب[1]: إن دخول الرجلين قد كان بعد ثمانية عشر شهراً من ظهور أبي مسلم.

والظاهر أنه لم يعن بظهوره هنا الوقت الذي جهر فيه بالدعوة، وإنما قصد به دخوله إلى خراسان لأن الطبري قد ذكر هذه الرواية في أحداث السنة التاسعة والعشرين بعد المائة، وهذه السنة نفسها هي التي خرجت فيها الدعوة من السر إلى العلن، وعليه فلا يعقل أن يفسر ظهور أبي مسلم بجهره بدعوته ويكون قد مضى بين هذا الظهور وبين القتال ثمانية عشر شهراً.

أما الوقت الذي كتب فيه الكتاب السابق الذكر، فهو فيما أرى قد كان قريباً من نشوب المعركة.

(ب) المعركة الأولى بين الفريقين:

ومهما يكن من شيء فإن نصراً[2] وجه إلى أبي مسلم مولى له اسمه

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣٥٨.

(٢) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص ٣٥٨ - ٣٥٩. =

يزيد الأسلمي في خيل عظيمة، وإن أبامسلم قد وجه إلى جند ابن سيار مالك بن الهيثم ومعه مصعب بن قيس، والتقى الفريقان في آلين، ولم ينشب القتال حتى دعا مالك يزيد ومن معه إلى الرضا من أهل البيت، ولما أبوا أنشب القتال وكان في مائتين من أصحابه. وعلى الرغم من قلة هذا العدد فإن مالكاً قد استطاع أن يصبر من بداية النهار حتى العصر. وقد أمد أبو مسلم قائد جيشه هذا بثلاثة وهم: صالح بن سليمان، وإبراهيم بن يزيد، وزياد بن عيسى، وحمي وطيس المعركة وكان من نتائجها:

هزيمة جيش نصر وأسر قائده، وقتل أربعة وثلاثين من رجاله وأسر ثمانية، وقد أمر أبو مسلم فنصبت رؤوس القتلى على أبواب المعسكر.

أما القائد المأسور[1] فقد أمر أبو مسلم بعلاجه وأبقاه في عسكره حتى يطلع شيعته من قريب وينقل أخبارهم إلى نصر بعد عودته إليه. والسبب في هذا هو أن الأمويين في خراسان وأنصارهم قد كانوا يشيعون أن أبا مسلم وأصحابه غير متمسكين بمبادئ الإسلام، وأنهم لا يؤدون الصلاة في أوقاتها المحدَّدة لها، فأراد أبو مسلم أن يبطل هذه الشائعات على لسان قائد الجيش نفسه وقد تم له ما أراد.

(جـ) الصراع بين المضريين واليمانيين وسياسة أبي مسلم تجاههما:

وقد فتحت هذه المعركة بين نصر وأبي مسلم أعين الأخير على الخطر

= ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٤، ص ٣٠١.

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣٥٩.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٤، ص ٣٠١.

المحـدق به، وراح يفكر في الظروف الدائرة من حـوله وكـيف يسـتطيع تطويعها لصالحه، وكان العرب[1] في خراسان على خلاف شديد، وكانت نار العصبية مشتعلة على أشدها بين اليمنيين الذين كانوا تحت إمرة نصر بن سيار. وثم زعيم ثالث وهو شيبان الحروري الذي كان حليفاً للكرماني على نصر لأنه هو وإياه كانا يكرهان الدولة الأموية ويتمنيان الخلاص منها، ولأن أبا مسلم قد كان يرى رأيهما في هذه القضية فإنهما كانا يميلان إليه، ويعتبرانه عدواً لعدوهما في خراسان وهو نصر بن سيار.

وقد أدرك نصر ما يمكن أن يصنعه هذا الصراع في تحقيق أهداف أبي مسلم ووصوله إلى ما يطمح إليه.

وراح يعمل جاهداً على تفريق هذه القوى، التي أضناها الخلاف، ومزقها الصراع. وقد سجل الطبري ما كان في ذلك من طرق ثلاثة وهي طريق المدائني وطريق أبي الخطاب، وطريق الرواة الذين لم يحـــدد أسماءهم.

وخلاصة ما جاء في هذه الطرق جميعاً[2] أن أبا مسلم راح ينفخ في جمر العصبية الجاهلية، فذكَّرعلي بن جديع الكرماني بثأره عند نصر الذي نصب له الحرب، وساق إليه الجيش بعد الجيش حتى قتل أباه وصلبه. الأمر الذي دفع علياً إلى نقض ما كان قد أبرم بينه وبين نصر، ورجعت

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣٦٤.
ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، جـ٢، ص ١١٤.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣٦٤.

الحرب مستعرة بينهما كما كانت حتى أضعف كل منهما صاحبه، وحتى أصبح أبو علي هو القوة التي يحرص على كسب ودها كلٌ من الفريقين. وبعد هذه الخطوة انتقل أبو مسلم إلى الخطوة الثانية وهي[1]: توسيع الخلاف بين الفريقين المتنازعين، والعمل على كسب محبتهما معاً، فكتب كتاباً إلى المضرية وأمر رسوله أن يسير به إليهم من طريق اليمن، وفعل مثل ذلك بالنسبة لليمانية، ولأن أبا مسلم قد كان يعلم أن كتابه سوف يُعتَرضُ سبيلُه ويؤخذ يُقرأ قبل وصوله إلى الهدف، فإنه أشاد باليمن في كتابه إلى المضرية، وأعلن أنه إلى جانبهم، وأشاد بمضر في كتابه إلى اليمن وأعلن أنه إلى جانبهم كذلك.

وبهذا أشعر كل فريق منهما أنه معهم على غيره فأحبوه وأظهروا له الود والتقدير، وطمع كل منهما في الاستظهار به على صاحبه، ثم كانت الخطوة الثالثة والأخيرة[2]، وهي إيثار أحد الفريقين على الآخر، ولأن أبا مسلم كما نعلم قد كان شديد الكراهية للمضريين لأنهم أنصار الأموالأمويين وشيعتهم فإنه قد قرر الوقوف إلى جانب اليمانية حتى يفرغ من مضر، ويقضي على زعيمها نصر.

وقبل أن يعلن موقفه هذا فإنه طلب من كلٍّ من الفريقين أن يبعث إليه وفداً حتى يناقشه ويرى رأيه فيه، وأوعز إلى ابن كثيِّر في سبعين نفسًا من

---

(١) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص ٣٦٩.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٤، ص ٣٠٣.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٧، ص ٣٧٧ - ٣٧٨.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٤، ص ٣٠٩.

الشيعة أن يشنعوا على وفد نصر، ويظهروا العداوة والبغضاء لهم. وتم الأمر كما أراد أبو مسلم وجاء الوفدان، وقام خطباء الشيعة فذكروا مساوئ بني أمية، وكيف أنهم قد قتلوا أهل البيت وشردوهم وسلبوهم حقوقهم.

وأنهم من أجل ذلك لا يستحقون صداقتهم، ولا ينبغي أن يكونوا وإياهم في خندق واحد.

وهكذا انضم الرجل صراحة إلى علي بن جديع الكرماني وقومه.

ولم يجد نصر - وقد آلت الأمور إلى ما آلت إليه - إلا أن يكتب إلى الخليفة آنذاك وهو مروان بن محمد، ويطلعه على ما يجري في خراسان ويطلب منه العون، وقد جاء في كتابه إليه هذا الشعر الذي يحض الأمويين على تلافي الخطر قبل وقوعه ويحذرهم إن هم لم يستجيبوا له أن يضيع ملكهم على يدي أبي مسلم وهذا هو بعض ما جاء منه[1]:

أرى خلل الرماد ومَيضَ جمرٍ ... وأحرى بأن يكون له ضرامُ
فإن النارَ بالعودين تُذكَى ... وإن الحرب أولُها كلامُ
فقلتُ من التعجب: ليت شعري ... أأيقاظُ أمية أم نيامُ
فإن كانوا لحينهُم نياماً ... فقُل قوموا فقد حان القيامُ

وقد كان مروان جديراً أن يسعف نصراً، ويبعث إليه من المدد بما يريده، غير أن ظروفه قد كانت أكبرمنه، ولم يستطع إطفاء الفتن المحدقة به،

---

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص ٣٤١.
الدينوري: الأخبار الطوال، ص ٣٥٧.
الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣٦٩.

فكتب إليه يقول، إن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب فاحسم الثؤلول قبَلك.

وأمام هذا الرد الذي لم يكن يتوقعه نصر من الخليفة كتب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة عامل الأمويين على العراق بمثل ما كتب به إلى الخلفية وجاء في كتابه إليه[1] هذا الشعر، الذي يصور فيه براعة الأخطار الكامنة في خراسان، وينذر بالويل والثبور إذا لم تجتث شجرتها في عجلة وسرعة.

وقد جاء من هذا الشعر قوله:

أبلغ يزيدَ وخير القول أصدقُهُ ... وقد تبينتُ ألا خير في الكذب

إن خُراسان أرضٌ قد رأيتُ بها ... بيضاً لا أفرخ قد حُدثت بالعَجَب

فراخُ عامين إلاّ أنها كبرت ... لما يطرنَ وقد سُربلن بالزغبَ

فإن يطرنَ ولم يُحتل لهُن بها ... يُلهبن نيرانَ حرب أيما لَهبَ

وكما كان جواب الخليفة إلى نصر سلبياً، فقد كان جواب ابن هبيرة إليه سلبياً كذلك، وقد عاد نصر وكتب[2] إلى الخليفة يعظم له شأن أبي مسلم ويذكر أنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد العباسي، وقد تصادف عند وصول هذا الكتاب إليه العثور على كتاب آخر من إبراهيم إلى أبي مسلم، يوبخه لأنهه لم ينتهز الفرصة السانحة له ويفرغ من نصر والكرماني معاً، ويأمره ألاّ يدع بخراسان عربياً إلا قتله.

---

(١) الطبري: المصدرالسابق، جـ٧، ص ٣٦٩ - ٣٧٠.
المسعودي: مروج الذهب، جـ٣، ص ٢٤١ - ٢٤٢.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٤، ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣٧٠.
ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، جـ٢، ص ١١٥ - ١١٦.

ولا جدال في أن هذه المقالة الأخيرة قد كانت من قبيل المبالغة، وإلا فإن أبا مسلم قد اعتمد على العنصر العربي في خراسان، وقد سبق وذكرنا أن ثمانية من نقباء الدعوة الاثني عشر قد كانوا من العرب، وأن الذي سوف يتولى أعنة الحرب حتى يصل بالجنود إلى قلب العراق قد كان عربياً طائياً وهو قحطبة بن شبيب، وأن خزاعة وهم عرب قد كان لهم دور كبير في نجاح الدعوة في خراسان، وعليه فإن أمر إبراهيم لأبي مسلم بقتل من قدر عليه من العرب إنما كان يعني الذين كاشفوه البغضاء، وناصبوه العداوة. وأيًا ما كان فإن أبا مسلم[1] لما أيقن بأن الفرقة قد عادت أدراجها إلى اليمن ومضر، وأن الصلح الذي كان قد أبرم بينهما قد انطوى، وأسدل الستار عليه وأمر جنوده أن يبنوا بيوتهم، ويستعدوا لاستقبال الشتاء، وأقام في معسكره في الماخوان ثلاثة أشهر كان ابتداؤها في النصف من صفر.

(د) نحو مرو عاصمة الإقليم:

وفي يوم الخميس التاسع من جمادى الأولى تحرك متوجهاً في جنده إلى مدينة مرو، وهي عاصمة خراسان آنذاك، وفيها قصر الإمارة. وتختلف روايات الطبري الثلاث فيما كان بعد ذلك حتى دخل أبو مسلم المدينة، ونزل قصر الإمارة فيها. فيذهب بعضها[2] إلى أن أبا مسلم طلب من علي بن جديع أن يدخل حائط مرو، وينشب المعركة، وكان علي قد طلب منه أن يكون هو البادئ إلا أنه أبى حتى لا يضع ابن الكرماني يده في يد

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣٧٨.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٤، ص ٣٠٩.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣٧٨ - ٣٧٩.

نصر، وتم الأمر كما أراد أبو مسلم، ودخل المدينة والفريقان يقتتلان وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾(القصص ١٥) ولما تم له الأمر أخذ البيعة من الشيعة، وقد أوردت رواية أبي الخطاب نص هذه البيعة وهو: «أبايعكم على كتاب الله - عز وجل - وسنة نبيه ﷺ والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله ﷺ عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، والطلاق والعتاق والمشي إلى بيت الله، وعلى ألا تسألوا رزقاً ولا طمعاً حتى يبدأكم به ولاتكم، وإن كان عدو أحدكم تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر من ولاتكم».

وذهب المدائني[١] إلى أن أبا مسلم قد أقام في الماخوان ثلاثة أشهر، وأنه تحرك منها نحو مرو في السابع أو التاسع من شهر ربيع الثاني. وأن نصراً قد خشي أن يجتمع هو واليمانية عليه فطلب منه أن يوادعه، ويدخل مدينة مرو، فوافقه الرجل على هذا الاقتراح، وبعد يوم تحرك هو نحو المدينة، وترك الفريقين يقتتلان حتى دخلها وهو يتلو الآية التي ذكرتها في الرواية السابقة.

وتبقى الرواية الثالثة[٢] وفيها أن أبا مسلم بعد أن أقام في الماخوان ثلاثة أشهر، توجه في الجنود إلى مرو، فوجد الفريقين يقتتلان فأمرهما بالكف ودخل المدينة ووضع يده عليها.

أما نصر[٣]، فإن أبا مسلم قد دعاه إلى السلم والدخول في طاعة

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣٨٠.

(٢) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص ٣٧٨ - ٣٧٩.
ابن الأثير: الكامل، جـ٤، ص ٣١٠.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣٨١. =

الرضا من أهل البيت، وأمام اجتماع اليمن والعجم عليه فكر في قبول ما عرضه عليه أبو مسلم، غير أنه ما لبث أن تراجع وأخذ طريقه نحو الهرب، والسر في هذا أن أبا مسلم قد أرسل إليه لاهز بن قريظ التميمي يفاوضه في الصلح، غير أن لاهزاً هذا قرأ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾(القصص ٢٠) فأمر غلامه أن يحضر له وضوءاً، وأوى إلى بستان في المنزل ثم أخذ طريقه نحو الفرار.

وقد قبض أبو مسلم[١] على بضع وعشرين من خاصته واستشار فيهم أحد نصائحه فقال له: ليكن صوتك السيف، وسجنك القبر، فأمر بهم فقتلوا وقتل لاهز أيضاً عندما علم أبو مسلم بما قرأه على نصر واعتبر ذلك خيانة منه.

(هـ) مصير ابني الكرماني وشيبان الحروري:

وأدع ابن سيار وما كان من شأنه حتى انتهى أمره، وأذكر أولاً: ما كان بين أبي مسلم وبين شيبان الحروري، وما كان بينه وبين علي وعثمان ابني جديع بعد ذلك، ثم أعود مرة أخرى إلى نصر، لأن نهايته قد كانت بعد القضاء على شيبان وابني جديع جميعاً. وقد روى الطبري[٢] ما كان بين أبي مسلم وبين شيبان من طريق المدائني. وخلاصة ما ذكره هذا الراوي وشيوخه

= اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص٣٤٣.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٤، ص ٣١٠ - ٣١١.

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣٨٠ - ٣٨٥.

(٢) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص ٣٨٥.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٤، ص ٣١١.

أن شيبان قد غادر مرو، وارتحل إلى سرخس[1]، والسبب في هذا: هو أنه لم يوافق ابني جديع على مسالمته، والدخول في طاعته، ولم يستطع أن يحاربه وابني جديع معاً، وقد أرسل إليه أبو مسلم يطلب منه الدخول في طاعته، فرد عليه يدعوه هو إلى الدخول في طاعته، ولما لم يتفق الرجلان على شيء طلب منه أبو مسلم أن يغادر المكان الذي هو فيه فأبى، وحبس الرسل التسعة الذين كان قد أرسلهم أبو مسلم إليه.

وهكذا تفاقم الأمر بين الرجلين وأصبحت الحرب ضرورة ليس إلى تلافيها من سبيل. ومن أجل ذلك كتب[2] أبو مسلم إلى بسام بن إبراهيم يأمره أن يزحف إلى شيبان من أبيورد ويقاتله ودارت رحى الحرب وتمكن بسام من هزيمة شيبان وقتله وقتل عدداً غير يسير من بكر بن وائل الذين كانوا أنصاره وجنده.

ومن الروايات[3] ما تذكر أن الجيش الذي أرسله أبو مسلم إلى شيبان قد كان بقيادة خزمية بن خازم، وبسام بن إبراهيم. وأن هذا الجيش لم يتوجه من أبيورد[4] وإنما كان من قبل أبي مسلم نفسه. وسواء أصحت هذه الرواية

---

(١) سرخس: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وفتح الخاء المعجمة، وآخره سين مهملة، ويقال سرخسس بالتحريك، وهي مدينة قديمة من نواحي خراسان.
ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص٢٠٨.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص٣٨٦.

(٣) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص٣٨٦.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٤، ص٣١١.

(٤) أبيورد: مدينة بخراسان بين سرخس ونسا.
ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص٨٦.

أم سابقتها فإن أبا مسلم قد استراح من رجل شديد العداوة له، شديد الشكيمة في مواجهته ومنازلته. وبقي أمامه علي وعثمان ابنا جديع اللذان انقادا له ودخلا في طاعته، وإن كان أبو مسلم لم يسترح إليهما يوماً، وإنما وضع يده في أيديهما حتى يفتح مدينة مرو، ويقهر عامل الأمويين نصر بن سيار ثم لا يتردد في اهتبال الفرصة في قتلهما إذا هي سنحت له، وهذا ما كان، فإن أبا مسلم لما اضطر نصر إلى الهرب وقتل شبيان الحروري راح يخطط للظفر بهذين الرجلين حتى تخلص له خراسان وقد حكى لنا الطبري الظروف التي هيأت له هذه الفرصة وحاصل ما جاء على لسانه:

أن أبا مسلم[1] وجه موسى بن كعب إلى أبيورد ففتحها، ووجه أبا داود إلى بلخ[2]، وكان بها يومئذ زياد بن عبدالرحمن القشيري فجمع الأعوان من هذه المدينة وما حولها من قرى طخارستان إلى الجوزجان[3] غير أن زياداً هذا لم يكد يرى أبا داود حتى انصرف منهزماً

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣٨٦ - ٣٨٧.

(٢) مدينة مشهورة بخراسان، طولها مائة وخمس عشرة درجة، وعرضها سبع وثلاثون درجة وهي في الإقليم الخامس، وبلخ من أجمل مدن خراسان وأكثرها خيراً، وأوسعها غلة، تحمل غلتها إلى جميع خراسان وإلى خوارزم
ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص ٤٧٩.

(٣) الجوزجان: كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، وهي بين مرو الروذ وبلخ، ويقال لقصبتها اليهودية، ومن مدنها الأنبار وفارياب وكلاَّر.
ياقوت: المصدر السابق، جـ٢، ص ١٨٢.

إلى الترمذ[1]. وترك أبا داود فدخل بلخاً واستولى عليها.

واستدعاه أبو مسلم بعد ذلك وجعل مكانه أبا الميلاء يحيى بن نعيم. وكاتب زياد أبا الميلاء هذا واستطاع أن يستقطبه إليه. واجتمعت كلمة المضريين واليمنيين ومن انضم إليهما من الأعاجم على قتال المسودة، وأمَّروا عليهم جميعاً مقاتل بن حيان النبطي.

وأمام ذلك أمر أبو مسلم أبا داود بالعودة[2] من حيث أتى، ودارت بينه وبين مقاتل معركة فاصلة على كسب من نهر السرجنان تجرع فيها جيش مقاتل الهزيمة واحتوى أبو داود معسكره واستصغر أموالهم، وأعاد مدينة بلخ مرة أخرى إلى أملاك أبي مسلم.

واستدعى أبو مسلم[3] بعد ذلك أبا داود وأحل مكانه النضر بن صبيح. واتفقت كلمة الرجلين أبي مسلم وأبي داود على التفريق بين عثمان وعلي بن جديع، فاستعمل أبو مسلم عثمان على بلخ، واستخلف عثمان بن الفرافصة على المدينة.

وأقبلت المضرية[4] يقودهم مسلم بن عبدالرحمن الباهلي، ودارت

---

(١) ترمذ: مدينة مشهورة من أمهات المدن، راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقي، متصلة العمل بالصاغنيان، ولها قهندز وربض، يحيط بها سور، وأسواقها مفروشة بالآجر، ولهم مشرب يجري من الصاغنيان لأن جيحون يستقل عن شرب قراهم.
ياقوت: المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٦.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣٧٨.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٤، ص ٣١٢.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣٨٧.

(٤) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص ٣٨٧ - ٣٨٨. =

بينهم وبين جنود عثمان معركة حامية في قرية بين البروقان وبين الدسبتحرد كانت الهزيمة فيها إلى جانب جنود عثمان، وغلب المضرية على مدينة بلخ وأخرجوا الفرافصة منها. ثم إن عثمان والنضر بن صبيح التقيا مرة أخرى بالمضرية وكما هزم رجال عثمان بالمرة الأولى فقد هزموا كذلك في المرة الثانية وعاد أبو داود فوضع يده على بلخ. وسار أبو مسلم ومعه علي بن جديع إلى نيسابور[1]. واتفق رأيه ورأي داود على أن يقتل الأول علي ويقتل الثاني عثمان، وأن يكون ذلك في يوم واحد. وتم الأمر كما أرادوا وقتل علي وعثمان.

وكان أبو مسلم[2] قبل ذلك قد طلب من علي أن يطلعه على أسماء خاصته حتى يبرهم ويبالغ في إكرامهم، وانطلت الحيلة على الرجل وأفضى إلى أبي مسلمٍ بما أراد منه ولما قتل عمد أبو مسلم إلى هؤلاء الرجال فقتلهم جميعاً.

= ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٤، ص ٣١٢.

(١) نيسابور: بفتح أوله، والعامة يسمونه نشاورز، وهي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة، ومدينة نيسابور خارجة من الإقليم الرابع من الإقليم الخامس، ومن أسماء نيسابور أبر شهر، وبعضهم يقول إيرانشهر، والصحيح أن إيرا نشهر هي ما بين جيحون إلى القادسية ومن الري إلى نيسابور مائة وستون فرسخاً.
ياقوت: معجم البلدان، جـ ٥، ص ٣٣١.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٧، ص ٣٨٨.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٤، ص ٣١٢.

(و) نهاية نصر ومتابعة الفتح :

وهكذا استراح الرجل من شيبان وابن الكرماني ولم يبق أمامه سوى نصر الذي فر هارباً إلى سرخس كما أسلفت والذي راح ينتقل من بلد إلى بلد حتى تخلص منه هو الآخر، كما سوف أوضح ذلك الآن.

وقد روى المدائني وشيوخه ما جرى من الأحداث حتى قضي على نصر. وخلاصة[1] ما جاء في هذه الرواية أن ابن هبيرة عامل الأمويين على العراق قد بعث إلى نصر جيشاً من أهل الشام يقوده ابن نباتة وأن هذا الجيش قد مر في طريقه بفارس، وأصبهان[2]، والري[3]، حتى انتهى بجرجان[4] وأن نصراً وجنوده قد انضموا إليه من قومس وبعث إبراهيم الإمام قحطبة في طائفة من الوجهاء منهم أسيد بن عبدالله الخزاعي، وخالد بن برمك،

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣٩١.

(٢) أصبهان: مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، وأصبهان اسم للإقليم بأسره وكانت مدينتها أولاً جياً ثم صارت اليهودية، وهي من نواحي الجبل في آخر الإقليم الرابع، طولها ست وثمانون درجة، وعرضها ست وثلاثون درجة.
ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص ٢٠٦.

(٣) الري: مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخاً، ومن قزوين إلى أبهر اثنا عشر فرسخاً ومن أبهر إلى زنجان خمسة عشر فرسخاً.
ياقوت: المصدر السابق، جـ٣، ص ١١٦.

(٤) جرجان: بالضم، وآخره نون، قال صاحب الزيج: طولها ثمانون درجة ونصف وربع، وعرضها ثمان وثلاثون درجة، وهي في الإقليم الخامس، من أكبر المدن، وهي قطعتان إحداهما المدينة والأخرى بكرأباذ.
ياقوت: المصدر السابق، جـ٢، ص ١١٩.

وأبو عون وموسى بن كعب، والمسيب بن زهير، وغيرهم. وكان ذلك في ذي القعدة من السنة المكملة لَلثلاثين بعد المائة.

وقبل أن يتصل قحطبة بالجنود عبَّأ جيوشه ورتب قواده وقال[1]: « يا أهل خراسان أتدرون إلى من تسيرون ومن تقاتلون؟ إنما تقاتلون بقية من أحرقوا بيت الله عز وجل ».

وتقدم الحسن بن قحطبة وكان على مقدمة هذا الجيش حتى وصل إلى تخوم خراسان.

وبعث طائفة من فرسانه إلى مُسلحة لنباته عليها رجل يدعى ذؤيب فبيتوه وقتلوا سبعين من أصحابه، وعادوا مرة أخرى إلى عسكرهم. وكان قحطبة قد انتهى إليهم فوقف الجيشان كلاً منهما بإزاء صاحبه، ولأن أهل الشام قد كانوا من العدد والعدة بمكان فإن أهل خراسان قد هابوهم، واضطربوا خوفاً منهم، الأمر الذي دعا قحطبة إلى أن يخطب فيهم قائلاً[2]:

« يا أهل خراسان، هذه البلاد كانت لآبائكم الأولين، وكانوا ينصرون على عدوهم بعدلهم وحسن سيرتهم، حتى بدلوا، وظلموا، فسخط الله عز وجل عليهم، فانتزع سلطانهم، وسلط عليهم أذل أمة كانت في الأرض عندهم، فقبلوهم على بلادهم، واستنكحوا نساءهم، واسترقوا أولادهم،

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٧، ص ٣٩١.

(٢) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص ٣٩١ - ٣٩٢.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٤، ص ٣١٣ - ٣١٤.

فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ويوفون بالعهد وينصرون المظلوم، ثم بدلوا، وغيروا وجاروا في الحكم، وأخافوا أهل البر والتقوى من عترة رسول الله ﷺ فسلطكم عليهم لينتقم منهم بكم لتكونوا أشد عقوبة، لأنكم طلبتموهم بالثأر. وقد عهد إلي الإمام أنكم تلقونهم في مثل هذه العدة فينصركم الله - عز وجل - عليهم فتهزمونهم وتقتلونهم».

وواضح من هذه الخطبة المؤثرة أن قحطبة قد أثار عصبية العجم، وبين لهم الأسباب التي من أجلها غلبهم العرب، وأخذوا بلادهم منهم، وكيف أنها عينها هي الأسباب التي سوف تؤدي إلى نصرهم، فقد جار هؤلاء العرب وظلموا واستباحوا عترة النبي - عليه الصلاة والسلام - وأهل بيته، وأنهى خطبته هذه بما ظن أنه سيلهب عزائم القوم، ويدفعهم إلى الاستماتة في القتال، فأخبرهم أن الإمام قد حدد له زمان هذه المعركة ومكانها، وأنبأه بأنه سوف ينصر على عدوه فيها. ودارت[1] رحى القتال بين قحطبة وبين ابن نباته، وكان ذلك يوم الجمعة في مستهل ذي الحجة في السنة المكملة للثلاثين، وقبل أن تتزاحف الصفوف ويشتبك الفريقان بالأسنة والسيوف عاد قحطبة إلى تحريض القوم وتحميسهم فقال:

«يا أهل خراسان[2] إن هذا اليوم قد فضله الله تبارك وتعالى على سائر الأيام والعمل فيه مضاعف، وهذا شهر عظيم فيه عيد من أعظم أعيادكم عند الله عز وجل، وقد أخبرنا الإمام أنكم تُنصرون في هذا اليوم من هذا

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣٩٢.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٤، ص ٣١٤.
(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣٩٢.

الشهر على عدوكم، فالقوة بجد وصبر واحتساب، فإن الله مع الصابرين».

وواضح من هذه الخطبة الثانية أنها مثل الأولى في إثارة عواطف العجم، وإهاجة مشاعرهم والإيحاء إليهم أن الإمام يعلم الغيب، وهو من أجل هذا حدد مكان المعركة وزمانها وأكد ظفر أنصاره على أعدائه فيها.

ولا جدال في أنه لا الإمام إبراهيم ولا قحطبة يعلمان شيئاً من الغيب؛ لأن الله تعالى قد استأثر به وذكر في القرآن العظيم أن مفاتيحه بيده، وما قاله قحطبة ليس إلا تخرصاً وافتراء لا هدف له سوى تحميس الجنود ودفعهم إلى الاستماتة في الحرب والاستبسال في القتال وقد تم له ما أراد فقد هزم جيش الشام، وقتل قائده وعشرة آلاف منهم، وبعث قحطبة برأس ابن نباتة إلى أبي مسلم.

وارتحل[1] نصر بطبيعة الحال إلى خوار مرو، وأرسل قحطبة إلى قومس جيشاً بقيادة ابنه الحسن، ثم أمده بجيش بقيادة أبي كامل وأبي القاسم محرز بن إبراهيم، غير أن أبا كامل لم يكد يقترب من الحسن حتى أوى إلى نصر، وانضم إليه، وأرشده إلى مكان زميله، فبعث إليهم قوة حاصرتهم، واضطرتهم إلى الفرار واستولى رجاله على ما خلفوا من المال والمتاع.

ثم ارتحل نصر إلى مرو[2]، وأقام فيها يومين ثم غادرها مريضاً إلى

---

(١) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص ٤٠٣.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٤، ص ٣١٧.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٤٠٣.
الدينوري: الأخبار الطوال، ص ٣٦٣.

ساوه حيث مات هناك. ومن الرواة من يدعي[1] أن نصراً لم يدخل الري ولكنه أخذ المفازة التي كانت بينها وبين همذان فمات بها.

وأياً ما كان فإن وفاته قد كانت في الثاني من ربيع الأول من السنة الحادية والثلاثين بعد المائة. وسنه إذاك خمس وثمانون سنة. وبوفاة نصر انقادت كل القوى في خراسان لأبي مسلم وخلص تماماً من زعماء اليمانية والمضرية على السواء.

وإنصافاً للتاريخ فإني أرى أن نصر بن سيار قد كان رجل سياسة وحرب لا نظير له، وأنه كان أحد الأكفاء القلائل الذين استعان بهم الحكم الأموي في خراسان، فقد صبر لأبي مسلم وقاومه في شجاعة وبسالة، وظل كذلك حتى مات حتف أنفه، ولو أن هذا الرجل وجد أذناً صاغية من القبائل المتصارعة في خراسان أو وجد أذناً صاغية من الخليفة في دمشق أو من عامله على العراق، لما استطاع أبو مسلم أن يبلغ هدفه بهذه السرعة، ولا أن يحقق ما كان يرمي إليه بهذا اليسر وهذه البساطة. فقد دعى نصر كلاً من شيبان وابن الكرماني إلى موادعته حتى يفرغ لأبي مسلم، أو إلى وضع أيديهم في يديه حتى يحاربه وإياه في خندق واحد ونبه كلاً من مروان، وابن هبيرة إلى الخطر المحدق والشر المُنيخ، غير أن الظروف كانت أقوى من تدبيره وأن المقادير كانت تجري في غير صالحه.

فقضي وأُسدل الستار على حياته.

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٤٠٤.
ابن الأثير: الكامل، جـ٤، ص ٣١٧.

وتابع أبو مسلم وقحطبة الفتح حتى استوليا تماماً على خراسان، ومنها إلى تخوم العراق، وخلاصة ما ذكره صاحب الأمم والملوك في ذلك، أن[1] قحطبة قد نزل الري، وأن أبا مسلم قد تحول من مرو إلى نيسابور وخندق بها. وبعد ثلاثة أيام من وصول قحطبة إلى الري بعث ابنه الحسن إلى همذان[2] ويقف الطبري عند هذا الحد ويترك الرواية لأبي علي المدائني وشيوخه، الذين يذكرون أن الحسن لما وصل همذان، غادرها مالك بن أدهم ومن معه من جنود نصر إلى نهاوند[3]، وأن الحسن قد زحف إليهم وحصرهم، وكان أبوه قحطبة قد أمده بسبعمائة. عليهم أبو الجهم بن عطية.

غير أنه لم يفرغ منهم ولم يستطع اقتحام مدينتهم عليهم إلا بعد أن أقبل إليه أبوه إثر قتل ابن ضبارة، ومن أجل هذا فإنني أرجئ الحديث عن فتح هذه المدينة، وما كان بين قحطبة وبين أنصار الأمويين فيها حتى أسلط الأضواء على قتل ابن ضبارة.

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٤٠٤ - ٤٠٥.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٤، ص ٣١٧ - ٣١٨.

(٢) همذان: بالتحريك، والذال معجمة، وآخره نون، في الإقليم الرابع، وكان فتح همذان في جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من مقتل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وكان الذي فتحها المغيرة بن شعبة في سنة ٢٤ من الهجرة.
ياقوت: معجم البلدان، جـ ٥، ص ٤١٠.

(٣) نهاوند: بفتح النون الأولى وتكسر، والواو مفتوحة ونون ساكنة، ودال مهملة: ويقال سميت نهاوند لأنهم وجدوها كما هي، ونهاوند في الإقليم الرابع، وكان فتحها سنة ١٩هـ ويقال سنة ٢٠هـ، وذكر أبو بكر الهذلي عن محمد بن الحسن: كانت وقعة نهاوند سنة ٢١هـ أيام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -.
ياقوت: المصدر السابق، جـ ٥، ص ٣١٣.

وابن ضبارة[1] هذا هو أحد قادة ابن هبيرة. وكان قد أسند إليه مهمة قتال عبدالله بن معاوية، فهزمه وراح يتتبعه حتى وصل إلى كرمان[2]. وكان ابن هبيرة قد أتته أخبار ابن نباته فكتب إلى ابن ضبارة يأمره ويأمر ابنه داود أن يتوجها إلى قحطبة لقتاله، وانطلق الرجلان حتى وصلا إلى أصبهان في جيش قوامه خمسون ألفاً. ولكثرة عدد هذا الجيش، وكثرة عدّته فقد كان يقال لعسكر ابن ضبارة عسكر العساكر. ولما علم[3] قحطبة بتوجهه نحوهم بعث إليه جيشاً يقوده العكي. وقد زحف هذا الجيش حتى انتهى إلى قم[4]، وكان ابن ضبارة لما علم بمحاصرة الحسن بن قحطبة بنهاوند، أراد أن يتوجه إليها ويفك الحصار عن أنصار الأمويين فيها، وعلم مقاتل بن حكيم العكي ما اعتزم عليه ابن ضبارة وبعث الخبر إلى قحطبة الذي ضم إليه العكي، ثم التقى بجنود ابن ضبارة في معركة فاصلة انتصر فيها قحطبة وقتل ابن ضبارة، وقد اختلف شيوخ المدائني في السبب الذي من أجله قتل هذا القائد على الرغم من كثرة ما كان معه من العدد والعدة.

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٤٠٥.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٤، ص ٣١٨.

(٢) كرمان: بالفتح ثم السكون، وآخره نون، وربما كسرت والفتح أشهر بالصحة، وكرمان في الإقلم الرابع، فتحت في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على يد عثمان بن العاص.
ياقوت: معجم البلدان، جـ٤، ص ٤٥٤ - ٤٥٥.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٣١٨ - ٣١٩.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٤، ص ٣١٨ - ٣١٩.

(٤) قم: بالضم، وتشديد الميم، وهي كلمة فارسية: وقم مدينة تذكر مع قاشان، وطول قم أربع وستون درجة، وعرضها أربع وثلاثون درجة وثلثا، وهي مدينة مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم فيها، وأول من مصرها طلحة بن الأحوص الأشعري.
ياقوت: معجم البلدان، جـ٤، ص ٣٩٧.

فذهب بعضهم[1] إلى أن الجنود الذين كانوا معه كانوا فرساناً، وأن جيش قحطبة قد كان فيه الخيل والرجالة، فعمد الرماة فرشقوا وجوه خيل ابن ضبارة فولت الأدبار لا تلوي على شيء وأوى ابن ضبارة إلى العسكر، فتبعه قحطبة فناوره، وقاتل ابن ضبارة حتى قتل.

وذهب البعض[2] الآخر إلى أن السبب في الهزيمة هو فرار داود بن يزيد بن عمر بن هبيرة، وقد كان شريكه في القيادة، ففت ذلك في عضده، وهزم وقتل.

وأياً ما كان فإن جنود قحطبة قد هاجموا عسكر أعدائهم وغنموا ما فيه، وكان قد حوى من المال والمتاع ما لا يقع تحت حصر.

وسبب ثالث[3]: لاسبيل إلى إغفاله في هزيمة ابن ضبارة وقتله وهو: ترف أهل الشام وإسرافهم في المتع والملذات، والدليل على هذا هو ما قيل في وصف عسكرهم من أنه لم يكن فيه بيت واحد إلا وفيه زقٌّ من الخمر.

ولا جدال في أن مثل هذا الترف يذهب بنخوة الجند، ويجعلهم أحرص على الدنيا منهم على الآخرة.

وأعود إلى نهاوند وأذكر[4] أن قحطبة لما فرغ من ابن ضبارة،

---

(١) الطبري: تايخ الأم والملوك، جـ٧، ص٤٠٦.

(٢) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص٤٠٦.

(٣) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص٤٠٦.
ابن الأثير: الكامل، جـ٤، ص٣١٩.

(٤) الطبري: تاريخ الأم والملوك، جـ٧، ص٤٠٧.
ابن الأثير: الكامل، جـ٤، ص٣١٨.

وجنوده، كتب بالفتح إلى ولده الحسن الذي لم يكد يسمعُ النبأ حتى كبر، وكبر معه رجاله، وعلم المحاصرون في نهاوند أن ابن ضبارة قد قتل، وأن قحطبة لن يلبث إلا قليلاً حتى يقبل إليهم بما لا قبل لهم به، واقترح عليهم عاصم بن عمير أن يخرجوا هاربين بأنفسهم من الخطر المشرف عليهم، غير أن هذا الرأي لم يعجب المشاة من الجيش، واتهموا عاصماً ومن معه من الفرسان بأنهم إنما يريدون النجاة بأنفسهم، وأن يتركوهم طعاماً لسيوف قحطبة وجنوده.

وهكذا أقام المحاصرون ولم يخرجوا كما نصحهم عاصم، وبعد عشرين يوماً أقامها قحطبة في أصبهان نصب السلالم على حصون قهندز، ويختلف شيوخ المدائني فيما كان بينه وبين أهلها، فيذهب بعضهم[1] إلى أن مالك بن أدهم طلب من قحطبة الأمان لنفسه ولأهل الشام، فأجابهم إليه، وأطلق، وقتل غيرهم من أهل خراسان.

ويذهب بعضهم[2] إلى أن مالكاً لما أخذ الأمان لنفسه ولأهل الشام غضب من ذلك الخراسانيون وأراد بهيس بن بديل قتل مالك، غير أن أهل خراسان رأوا الأبواب تفتح أمام أهل الشام فدخلوا معهم، فقبض عليهم قحطبة وأودعهم حائطاً ثم قتلهم.

وثم رواية ثالثة[3] لم يحدد الطبري أسماء أصحابها وحاصلها: أن قحطبة عرض الأمان على أهل خراسان وأهل الشام معاً، وأن أهل خراسان

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٤٠٧.

(٢) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص ٤٠٨.

(٣) الطبري: المصدرالسابق، جـ٧، ص ٤٠٨.

لم يقبلوه منه، وقبله أهل الشام ولكي يخرجوا في غفلة من إخوانهم سألوا قحطبة أن يشغلهم بالحرب حتى يفتحوا الباب الذي يليهم ويخرجوا منه، ورأى أهل خراسان خروج أهل الشام، فسألوهم فقالوا: اخترنا الأمان لنا ولكم، فخرجوا معهم، فأمر بهم قحطبة فقتلوا من عند آخرهم.

وهذه الروايات الثلاثة تتفق على أن أهل الشام هم الذين نجوا، وأن أهل خراسان قد قتلوا من عند آخرهم.

ويبدو لي أن قحطبة قد كان مصراً على قتل الخراسانيين لأن فيهم الكثير من الذين كانوا مع أبي مسلم ثم خانوه وانضموا إلى أعدائه.

وعلى هذا الأساس فإنه كان سيقتلهم إن نزلوا على الأمان أو لم ينزلوا.

والروايتان اللتان ذكرتا أن الخديعة ورفض الخرسانيين للأمان قد كانا هما السببين اللذين من أجلهما قتلوا، إنما هما مكتملتان في تصوري لتبرير ما فعله قحطبة ودفع اللائمة عنه. وأيًا ما كان: فإن قحطبة[1] لم يكد ينتهي من فتح نهاوند حتى بعث أبا عون، ومالك بن طريف إلى شهرزور لفتحها، وإقصاء عثمان بن سفيان عنها، وكانا قد أتيا إليها في مقدمة جيش عبدالله بن مروان.

وتختلف الروايات في عدد القوة التي كان يقودها أبو عون ومالك،

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٤٠٩.
ابن الأثير: الكامل، جـ٤، ص ٣١٩ - ٣٢٠.
غنيم: دور العباسيين في طلب الخلافة، ٩٦ - ٩٧.

أهي أربعة آلاف، أم ثلاثون ألفاً، وتختلف كذلك في عثمان قائد القوة التي بعثها إلى شهرزور عبدالله بن عبدالملك بن مروان وهل قتل في المعركة، أم أنه فر هارباً إلى من أرسله.

وعلى كل حال فإن أبا عون قد كسب المعركة، وأنزل الهزيمة الساحقة بالجنود الأمويين فيها، ولما بلغت مروان هذه الأنباء، وكان في حران تحرك بالجنود حتى أتى الموصل، وأدرك بنو أمية الخطر المحدق بهم فحشروا أبناءهم مع مروان حتى يكونوا في أمن بين جنود الخليفة. ثم إن مروان قد تقدم حتى انتهى إلى الزاب الأكبر[1].

(ز) نحو الكوفة :

وبدلاً من أن تنشب المعركة بين الخليفة، وبين جنود بني العباس، رأينا قحطبة يتجه في جنده نحو الكوفة[2] لفتحها، وبسط سلطانه عليها، والسبب في هذا هو أن داود بن يزيد بن عمر بن هبيرة لما أتى أباه منهزماً من حلوان خرج أبوه لقتال قحطبة بنفسه، وكان مروان الخليفة قد أمره بحوثرة في عشرين ألفاً.

(١) وهو ما بين الموصل وإربل، ومخرجه من بلاد مشتكهر، وهو حد ما بين أذربيجان وبليغش وهو ما بين قطينا والموصل من عين في رأس الجبل وينحدر إلى واد.
ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص ١٢٣.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٤١٠ - ٤١١.
ابن الأثير: الكامل، جـ٤، ص ٣٢٠.
والكوفة: بالضم: المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق، وسميت كوفة لاجتماع الناس بها، وهي في الإقليم الثالث، وتم تمصيرها أيام عمر بن الخطاب، في السنة التي مصرت فيها البصرة سنة ١٧ - وقيل: سنة ١٩، وقيل: سنة ١٨.
ياقوت: معجم البلدان، جـ٤، ص ٤٩٠ - ٤٩١.

ومضى ابن هبيرة حتى انتهى إلى جلولاء، ومضى قحطبة حتى وصل إلى الخانقين. وأهمت قحطبة أخبار ابن هبيرة، وأراد أن يعرف مكانه فأرسل ولده الحسن إليه فعرف خندقه، وجاءه بأخباره وأرسل إليه قحطبة ألا يواجهه، وأن يأخذ طريقه نحو الكوفة، وسأل من يدله على طريق يصل به إليها شريطة ألا يمر على ابن هبيرة، فأجابه ابن المورع الهمذاني، وعبر به تامراً[1] من روستقباذ، ولزم الجادة حتى نزل بزرج سابور، وأتى عُكبراء فعبر دجلة إلى أوانا.

وبعث قحطبة خازم بن خزيمة، وأمره أن يعبر دجلة ويسير بينها وبين دجيل، حتى يأتي الأنبار[2] ويجمع ما فيها من السفن ويأتي بها إلى قحطبة في دمما.

وتم الأمر كما أراد، ثم إن قحطبة عبر الفُرات، ووجه الأثقال في البرية، وسارت الفرسان معه على شاطئ الفرات.

وبلغت أنباء قحطبة ابن هبيرة[3]، وأنه آخذٌ طريقه نحو الكوفة فأشار عليه حوثرة وناس من وجوه أهل الشام، أن يترك قحطبة وما يريد ويذهب هو إلى خراسان، فيبسط يده عليها ولم يرتض ابن هبيرة هذا الرأي، وأمر

---

(١) تامرا: بفتح الميم: وتشديد الراء، وهي طسوج من سواد بغداد بالجانب الشرقي، وله نهر واسع يحمل السفن في أيام المدود، ومخرج هذا النهر من جبال شهر زور والجبال المجاورة لها.
ياقوت: المصدر السابق، جـ ٢، ص ٧.

(٢) الأنبار: بفتح أوله: مدينة قرب بلخ، وهي قصبه ناحية بجوزجان، وبها كان مقام السلطان، وهي على الجبل، وهي أكبر من مرو الروذ وبالقرب منها.
ياقوت: المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٥٧.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٧، ص ٤١٣.

حوثرة وكان على مقدمته، بالاتجاه نحو الكوفة. وقبل أن أواصل السير خلف الفريقين المتحاربين لأعرف على يد من منهما كان الظفر. يحسن بي أن أقف قليلاً لأعرف أي الرجلين قد كان على صواب حوثرة أم ابن هبيرة.

والذي يمعن النظر في رأي كلٍّ منهما يلاحظ: أن الصواب قد كان إلى جانب حوثرة، لأن ابن هبيرة لو توجه إلى خراسان لاستطاع بسط سلطانه عليها، لأن أكثر أنصار العباسيين قد كان مع قحطبة، ولو تم له ما أراد لقطع مادة الرجل، ولا ستطاع أن يتعاون عليه، هو والخليفة مروان فيقطعان عليه الطريق ولما بلغ ما يريد.

أما رأي ابن هبيرة فإن الأيام قد أثبتت خطأه لأن قحطبة استطاع أن يمضي في طريقه ويُنزل الهزيمة بجنود ابن هبيرة.

صحيح أنه قد قتل في أثناء ذلك، ولكن الهدف الذي كان يرمي إليه قد تحقق، فقد فتحت الكوفة وحصر ابن هبيرة وجنوده في واسط. وكانت النتيجة أن سقطت هذه المدينة إثر مقتل مروان بن محمد في مصر.

(ح) تحقيق مقتل قحطبة:

وأعود إلى قحطبة وما كان بينه وبين ابن هبيرة وأذكر أن: الفريقين[1] المتحاربين قد كانا يسيران نحو الكوفة، ابن هبيرة بين الفرات وسورا، وقحطبة في غربية مما يلي البر، وعبر إلى قحطبة أعرابي في زورقه، فسأل عنه، فذكر له أنه من طيئ وطلب منه أن يسقيه، فلما شرب قال:[2] الحمد

(١) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص ٤١٣.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٤١٣.

لله الذي أمـد في أجلي حـتى رأيت هذا الجـيش يشـرب من هـذا النهـر، واهتبل[1] قحطبة هذه الفرصة، فراح يزعم أن إمامه قد أخبره أن له وقعة على هذا النهر، وأن النصر سوف يكون إلى جانبه وطلب من الأعرابي أن يدله على مخاضة، فدله على من أرشده إليها، ووافاه جنود الشام، وبدلاً من أن يعبر إليهم رأى أن ينتظر حتى يمضي الشهر الحرام ومنه ليلة عاشوراء، وكانت ذات شأن عند الهاشميين في ذلك الوقت، فقد قتل في صبيحتها الحسين بن علي وقتل معه آله ورجاله.

ومن الرواة من قال: [2] إن قحطبة قد دل على المخاضة ليلة الأربعاء، لثمان خلون من المحرم، وأنه عبرها في عدة من أصحابه فور العثور عليها والتقى بجند ابن هبيرة، واستطاع أن ينزل بهم الهزيمة ويضطر حوثرة إلى الفرار حتى يلجأ إلى قصر ابن هبيرة وأصبح الجند فلم يجدوا أميرهم قحطبة، وكان قد هلك.

ويختلف رواة الطبري في كيفية قتل هذا الرجل ويختلفون كذلك في اسم قاتله، وفي الأسباب التي من أجلها لقي هذا المصير.

ويختلفون أخيراً في أيِّ ابنيه بويع من بعده الحسن، أم حُميد.

ولخطورة هذه القضية، وتناقض الروايات حولها، فقد رأيت أن أقف حيالها برهة لعلِّي أستطيع كشف ما يكتنفها من الغموض فقد انقسم الرواة حولها كما ذكرت، فمنهم من يذكر[3] أن الناس أصبحوا وقد فقدوا

---

(١) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص ٤١٣ - ٤١٤.

(٢) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص ٤١٣.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٤١٤.

أميرهم، فما يدرون متى قتل؟ ولا كيف قتل؟ ومنهم من يذكر[1] أنه وجد هو وحرب ابن سلم بن أحوز قتيلين في جدول فظن الناس أن كلاً منهما قد قتل صاحبه.

وثم روايتان أخريان[2] تصرح إحداهما: بأن الذي قتل قحطبة هو معن بن زائدة.

وتصرح الثانية أن الذي قتله هو أحلم بن إبراهيم ويبدو أن هذه الرواية هي الراجحة، وذلك لأن أحلم[3] نفسهُ قد صرح بهذا عند موته وذكر السبب الذي دفعه إلى أن يفعل ما فعل وهو: أن قحطبة قد قتل الكثيرين من أبناء نصر، وأنه قد نمي إليه عن أخيه بسام شيء، فخاف عليه منه، وأشياء أخرى لم يصرح بها ناقل هذا الخبر.

وإذا كانت هذه الرواية في تصوري هي الراجحة، فهل يمكن أن يكون قتل الرجل قد كان بإيعاز من أحد، وأن أحلم أو من نقل هذا الخبر عنه قد احتفظ به سراً فلم يطلع عليه أحداً وإذا كان هذا الفرض معقولاً، فمن صاحب المصلحة في الائتمار على قحطبة، والتخطيط للتخلص منه؟

وهل يمكن أن يكون هو أبو مسلم؟ هذا هو ما رجحه صاحب « دور العباسيين في طلب الخلافة »[4] وعلل له بأسباب منها:

---

(١) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص ٤١٥.

(٢) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص ٤١٥ - ٤١٦.

(٣) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص ٤١٦ - ٤١٧.

(٤) غنيم: دورالعباسيين في طلب الخلافة، ص ٩٩ - ١٠٢.

انتصارات قحطبة المتوالية، واكتسابه بذلك الحظوة عند العباسيين عامة، وعند الإمام على سبيل الخصوص، ومنها أن أبا مسلم قد كان يخشى مناقشة قحطبة له، وإنزاله إياه عن منزلته التي وصل إليها بدوره الذي اضطلع به في خراسان. ومنها: أنه كان يكره كل من كان يشعر بأنه خطر عليه مهما كانت منزلته ومهما كان جهاده وإخلاصه.

ومن أجل هذا قتل سليمان بن كثير، وأبا سلمة الخلال إلى آخر العلل والأسباب التي وردت في هذا الكتاب.

والحق أن هذه القضية في حاجة إلى مزيد من البحث والدرس حتى يصدر فيها الحكم التاريخي الفصل.

ويبقى من بويع خلفاً لقحطبة من ولديه، وقد اختلفت الروايات في ذلك فبعضها يذكر[1] أن الذي بويع هو حُميد.

وبعضها يذكر:[2] أن الذي بويع هو الحسن. ويبدو لي أن الاتجاه الثاني هو الأرجح، وذلك لسببين:

أحدهما: ما نصت عليه إحدى الروايات من أن قحطبة قد أوصى بمبايعته الحسن خلفاً له.

والثاني: أنه لم يرد ذكر لُحميد منذ أرسل الإمام قحطبة إلى خراسان ليتولى قيادة الجيش حتى قتل إلا في هذه الرواية. وأن الأضواء كلها قد

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٤١٤.

(٢) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص ٤١٤.
ابن الأثير: الكامل، جـ٤، ص ٣٢١.

كانت مسلطة على الحسن، فقد كان أبوه يسند إليه قيادة إحدى فرق الجيوش التي كان يخرج بها للحرب، وكان ينيبه عنه في الفتح.

وقد مرَّ بنا الكثير من المهمات التي أسندت إليه في كلٍّ من خراسان، والعراق.

وعليه فهو أجدر أبنائه بخلافته، وتولي إمرة الجنود بعد وفاته.

ومهما يكن من شيء فإن الجنود قد بايعوا الحسن بعد وفاة أبيه، وبقي عليه هو أن يكُمل ما حال الموت بين قحطبة وبين الوصول إليه: وهو دخول الكوفة، وبسط سلطان العباسيين عليها. وقد تم له ما أراد، وفتحت هذه المدينة التي لم تهدأ منذ استشهد أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - حتى خرجت من بين أيدي الأمويين إلى سلطان بني العباس.

وقد أورد الطبري في فتح هذه المدينة روايتين تذكر إحداهما[1] أن محمد بن خالد لما بلغته أنباء انتصار قحطبة على ابن هبيرة، لبس السواد، وهو الزي الذي اختاره العباسيون شعاراً لهم، ودخل قصر الإمارة في الكوفة، واضطر عامل الأمويين عليها زياد بن صالح، ورئيس شرطته عبدالرحمن بن بشير العجلي إلى الارتحال. غير أن أنصار ابن خالد ما لبثوا أن تفرقوا عنه عندما علموا أن حوثرة متوجه إليهم لقتاله. وأمام هذا الخطر أرسل أبو سلمة - ولم يكن قد ظهر بعد - إلى ابن خالد يأمره بمغادرة الكوفة إلى أسفل الفرات، غير أن الرجل لم يوافق، وكانت الظروف تمشي في ركابه فقد جاءته طلائعه تخبره أن خيلاً من أهل الشام قد أقبلت إليه، فبعث

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٤١٧.

إليها بعض مواليه لمدافعتها غير أنها أعلنت أنها إنما جاءت للدخول في طاعة الأمير، وتبعتها خيل أخرى أعظم وأكبر، فدخلت في طاعته أيضاً. وأمام هذا التخاذل من جند ابن هبيرة لم يجد حوثرة بُدًّا من العودة إلى واسط، وأرسل ابن خالد إلى قحطبة، ولم يكن قد عرف بنبأ قتله يخبره بما وقع وتسلم الحسن هذا الكتاب بطبيعة الحال وقرأه على الناس وفصل بجنوده إلى الكوفة ودخل قصر الإمارة فيها بعد ثلاثة أيام من استيلاء محمد بن خالد عليها.

وبحث الحسن عن أبي سلمة حتى وجده، فأسلم الأمر إليه، وقد كانت هذه هي وصية أبيه قحطبة له.

وهكذا ذكرت هذه الرواية فتح الكوفة. أما الرواية الثانية فخلاصتها:[1] أن محمد بن خالد لما أتاه نبأ توجه الحسن بن قحطبة الى الكوفة لفتحها لبس السواد، ووضع يده على قصر الإمارة، وكان عاملها عبدالرحمن بن بشير العجلي قد هرب عندما بلغه نبأ توجه الحسن إليها.

وقد دخل هذا القائد المنتصر المدينة في اليوم التالي لاستيلاء محمد بن خالد عليها، ثم إن الحسن قد بحث عن أبي سلمة حتى عثر عليه، وأعطاه ما تحت يده وراح أبو سلمة يرسل القوات إلى أنصار الأمويين في البصرة وغيرها من مدن العراق، إلا أن هذه المدينة الكبيرة لم يتم الاستيلاء عليها من قبل العباسيين إلا بعد الصلح الذي تم بين ابن هبيرة، وبين أبي جعفر قائد

---

(١) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص ٤١٨.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٤، ص ٣٢٢.

الجيوش العباسية التي كانت تتولى حصار هذه المدينة من قبل أبي العباس السفاح.

والآن وقد فتحت الكوفة، وظهر أبو سلمة حفص بن سليمان. وزير آل محمد كما كانوا يسمونه فماذا عن الإمام العباسي، وماذا عن أهل بيته، وكيف تمت بيعة أول خليفة من أبناء هذا البيت، وهو عبدالله بن محمد ابن علي بن عبدالله بن عباس؟

والجواب: أن الإمام[1] محمد بن علي لما حضرته الوفاة أوصى بالإمامة إلى ولده إبراهيم، وظل إبراهيم هذا يباشر أعباء هذه المهمة حتى بعث كتاباً إلى أبي مسلم يلومه لأنه لم يفرغ من قادة المضريين واليمنيين المتصارعين في خراسان، ووقع هذا الكتاب في يدي مروان، فكتب إلى عامله على دمشق يأمره أن يقبض على إبراهيم ويرسله إليه.

وتختلف روايات الطبري فيما كان بعد ذلك فتذكر إحداها:[2] أن مروان قد وصف لرسوله الرجل الذي يريد القبض عليه وأنه لما جاءه إبراهيم رده لأنه ليس هو المراد، وكان الوصف منطبقاً على أبي العباس عبدالله السفاح. غير أن الرسول لم يستطع القبض عليه لأنه كان قد هرب هو وأهل بيته إلى الكوفة.

ولا تذكر هذه الرواية ماذا جرى لإبراهيم وكيف عاد مرة أخرى إلى مروان.

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٤٢٢.

(٢) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص ٤٢٢.

وتذكر الأخرى:[1] أن رسول مروان لما جاء للقبض على إبراهيم، ووجد الصفات المطلوبة توافرها لا تنطبق إلا على أبي العباس السفاح، أراد القبض عليه، فأبى أهل بيته وقالوا له إنما جئت للقبض على إبراهيم، واضطر الرسول إلى أخذ من سماه، وفي الطريق أشار أنصار إبراهيم عليه أن يقتل رسول مروان ويولي هارباً نحو الكوفة، وقبل الرجل هذه المشورة، غير أن أم ولده أشارت عليه ألا يقتله، فأصغى لنصيحتها، فكان ما كان من حبسه ثم قتله.

وتمضي هذه الرواية فتذكر[2] أن إبراهيم لما أتى مروان أشار عليه أحد خاصته أن يصهر إليه، فإن استولى على الأمر كان حرياً أن يعفو عنه وإلا فإن نسبه لن يضيره. وأجاب مروان بأنه لو كان يعلم أنه هو المقصود لفعل، ولكنه شخصٌ، ومن تتوافر فيه الصفات التي يعرفها شخصٌ آخر.

ومضى الطبري فذكر:[3] من غير أن ينسب ما قاله إلى أحد، أن إبراهيم لما قبض عليه نعى نفسه إلى أهل بيته، وأوصى بالخلافة، لأبي العباس أخيه، وأمر أهل بيته بالسمع والطاعة له، ثم توجه أبو العباس إلى الكوفة ومعه من أهل بيته، عبدالله بن محمد، وداود بن عيسى، وصالح وإسماعيل، وعبدالله، وعبد الصمد بنو علي ويحيى بن محمد، وعيسى ابن موسى بن محمد بن علي وعبدالوهاب، ومحمد ابنا إبراهيم، وموسى

(١) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص ٤٢٢ - ٤٢٣.
(٢) الطبري: المصدرالسابق، جـ٧، ص ٤٢٣.
(٣) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص ٤٢٣.

ابن داود، ويحيى بن جعفر بن تمام. . وكان قدوم أبي العباس ومن معه إلى الكوفة في شهر صفر من العام الثاني والثلاثين بعد المائة، وقد أنزلهم أبو سلمة دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم، وأخفى أخبارهم أربعين يوماً عن القادة والوجهاء.

وكان كلما سأل أبو الجهم[1] عن الإمام ومن معه أخبره أبو سلمة بأن وقت خروجه لم يحن بعد، لأن مدينة واسط لا تزال في أيدي ابن هبيرة ومن معه من رجال بني أمية. غير أن أبا الجهم استطاع أن يصل إلى مكان الإمام وأهل بيته، وعن طريق سابق الخوارزمي، وهو أحد خدام العباسيين، وعلى الفور استشار موسى بن كعب وخرجا وإياه في رجال من وجوه الشيعة العباسيين حتى دخلوا على أبي العباس، وبايعوه بالخلافة بعد أن تيقنوا أنه هو عبدالله بن محمد بن الحارثية، ولما عرف أبو سلمة ما تم لم يجد بُدًّا من التوجه إلى العباس ومبايعته.

وثم رواية ثانية في خروج بني العباس من الحميمة حتى دخولهم مدينة الكوفة، وفيها غير ما ذكر في سابقتها. أن عدد[2] المرافقين لأبي العباس قد كانوا أربعة عشر رجلاً وأنهم لما نزلوا في دومة الجندل، خوَّف داود بن علي ابن أخيه أبي العباس من الشخوص إلى الكوفة وقال له: يا أبا العباس كيف

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٤٢٣.
ابن الأثير: الكامل، جـ٤، ص ٣٢٣.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٤٢٣ - ٤٢٤.
ابن الأثير: الكامل، جـ٤، ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

تأتي الكوفة وشيخ بني مروان مروان بن محمد بحران مطل على العراق في أهل الشام والجزيرة، وشيخ العرب يزيد بن عمر بن هبيرة بالعراق في حلبة العرب، غير أن هذا الخوف ما لبث أن تبدد عندما قام أبو الغنائم وقال: من أحب الحياة ذل، فارجع بنا معه نعش أعزاء أو نمت كراماً. فكان عيسى بن موسى إذا ذكر هذا الخروج قال: [1] إن نفراً أربعة عشر رجلاً خرجوا من دارهم وأهلهم يطلبون ما طلبنا لعظيم همهم، كبيرة أنفسهم، شديدة قلوبهم.

وقد ذكر صاحب تاريخ الأمم والملوك ما كان بين أبي العباس[2]، وبين أبي سلمة منذ دخول الأول إلى الكوفة حتى تمت البيعة له بطريقة شبيهة بما قبلها، وفيها من الزيادات أن الذي اهتدى إلى أبي العباس وأهل بيته هو أبو حميد فإنه خرج يريد الكناسة فلقي سابق الخوارزمي فسأله عن إبراهيم الإمام فأجابه بأنه قد قتله مروان، وأنه أوصى بالخلافة من بعده إلى أخيه أبي العباس.

إنه الآن في الكوفة فطلب أبو حميد من سابق أن يدخله على أبي العباس وأهل بيته فأبى حتى يأخذ له الإذن منهم، وفي اليوم التالي وبعد أن أخذ الإذن له أدخله على القوم، فسأله أيّكم الإمام، فأجاب داود بن علي: هذا إمامكم وخليفتكم وأشار إلى أبي العباس فبايعه أبو حميد وقبل يديه ورجليه، وقال: مرنا بأمرك، وعزاه في الإمام إبراهيم، وأتى إبراهيم

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٤٢٨.

(٢) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص ٤٢٩ - ٤٣١.

ابن أبي سلمة حمام أعين، حتى دخل على أبي الجهم، وأنبأه بأنه مرسل إليه من الإمام، وقصَّ عليه ما كان من أبي سلمة، وكيف أنه منحه مائة دينار كان يريد أن يدفعها لصاحب الإبل التي نقلته وأهل بيته من الحميمة إلى الكوفة. ثم إن إبراهيم بن أبي سلمة أتى أبا الجهم وموسى بن كعب، وسلمهما رسالة من الإمام وأهل بيته، واجتمع وجوه الشيعة في منزل موسى بن كعب وتناقشوا في الدخول على أبي العباس في الكوفة ونفذوا ما اتفقوا عليه، وبايعوا أبا العباس بالخلافة وأرسل أبو الجهم إلى رفقائه في منزل الإمام يقول لهم: إن أتاكم أبو سلمة فبايع، وإلا فاضربوا عنقه.

وهكذا اتفقت كلمة وجوه الشيعة بمن فيهم وزير آل محمد على إمامة أبي العباس. ثم إن الرجل[1] وأهل بيته ساروا حتى أتوا قصر الإمارة فنزلوه وخرج أبو العباس على برذون له حتى أتى المسجد، فصلى بالناس الجمعة، ثم صعد المنبر وأخذ البيعة من الناس وعاد إلى منزله، وترك أخاه أبا جعفر لإكمال أخذ البيعة له وقد سجل الطبري الخطبتين اللتين ألقى إحداهما أبو العباس، وألقى الثانية داود بن علي وهذه هي خطبة أبي العباس[2]: «الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة، وشرفه وعظمه، واختاره لنا وأيده بنا، وجعلنا أهله وكهفه. وحصنه والقوام به، والذابين عنه والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى، وجعلنا أحق بها وأهلها، وخصنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته وأنشأنا من آبائه، وأنبتنا من شجرته، واشتقنا من نبعته، وجعله من أنفسنا عزيزاً عليه ما عنتنا، حريصاً علينا

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٤٢٤ - ٤٢٨.

(٢) الطبري: المصدر السابق، جـ٧، ص ٤٢٥ - ٤٢٦.

بالمؤمنين رؤوف رحيم، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يُتلى عليهم فقال - عزّ من قائل - فيما أنزل من محكم القرآن: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[1] وقال: ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾[2] وقال: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾[3] وقال: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ ﴾[4] وقال: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ ﴾[5]. فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا تكرمةً لنا، فضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم، وزعمت السبئية الضُلاَّل، أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا، فشاهت وجوههم بم ولما أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق، وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً، ورفع بنا الخسيسة وتم بنا النقيصة، وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر، ومواساة في دينهم ودنياهم، وإخواناً على سرُر متقابلين في آخرتهم، فتح الله ذلك منةً، ومنحةً لمحمد - ﷺ - فلما قبضه الله إليه، قام بذلك الأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، فحووا مواريث الأمم، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها، وأعطوها أهلها،

---

(١) قرآن كريم: سورة الأحزاب، آية ٣٣.

(٢) قرآن كريم: سورة الشورى، آية ٢٣.

(٣) قرآن كريم: سورة الشعراء، آية ٢١٤.

(٤) سورة الحشر: آية ٧.

(٥) سورة الأنفال: آية ٤١.

وخرجوا خماصاً منها، ثم وثب بنو حرب ومروان، فابتزوها وتداولوها بينهم، فجاروا فيها، واستأثروا بها، وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منه بأيدينا، ورد علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا، وولي نصرنا والقيام بأمرنا، ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا، وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث آتاكم الخيرُ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله. يا أهل الكوفة، أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، وأنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم، حتى أدركتم زماننا، وآتاكم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا، وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح، والثائر المبير».

وهذه خطبة عمه داود بن علي:[1] «الحمد لله شكراً شكراً؛ الذي أهلك عدونا، وصير إلينا ميراثنا من نبينا محمد - ﷺ - أيها الناس، الآن اقشعت حنادس الدنيا، وانكشف غطاؤها، وأشرقت أرضها وسماؤها، وعاد السهم إلى منزعه، ورجع الحق إلى نصابه، في أهل بيت نبيكم، أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم. أيها الناس، إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنثر لجنياً، ولا عقياناً ولا نحفر نهراً، ولا نبني قصراً؛ وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا وما كرثنا من أموركم، وبهظنا من شؤونكم، ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا، ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم، وخرقهم بكم، واستذلهم لكم، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم. لكم ذمة الله

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ٤٢٦ - ٤٢٨.

تبارك وتعالى، وذمة رسوله - صلى الله عليه وآله - . وذمة العباس - رحمه الله - أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله - ﷺ - تباً تباً لبني حرب بن أمية وبني مروان ! آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة، والدار الفانية على الدار الباقية، فركبوا الآثار، وظلموا الأنام وانتهكوا المحارم، وارتكبوا الجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد، وسنَّتهم في البلاد التي بها استلذوا تسربُل الأوزار، وتجلبب الآصار، مرحوا في أعنة المعاصي، وركضوا في ميادين الغي، جهلاً باستدراج الله، وأمناً لمكر الله، فأتاهم بأس الله بياتاً وهم نائمون، فأصبحوا أحاديث، ومزقوا كل ممزق، فبعداً للقوم الظالمين ! وأدالنا الله من مروان، وقد غره بالله الغرور، أرسل لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه، وظنَّ عدو الله أن لن نقدر عليه، فنادى حزبه، وجمع مكايده، ورمى بكتائبه، فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وعن شماله، من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله، ومحق ضلالته، وجعل دائرة السوء به، وأحيا شرفنا وعزنا ، ورد إلينا حقنا وإرثنا . أيها الناس إن أمير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً، إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة، أنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره، وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن استحضر من شدة الوعك، وادعو الله لأمير المؤمنين بالعافية، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد صلاحها بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين، الشاب المتكهل المتمهل المقتدي بسلفه الأبرار الأخيار، الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى، ومناهج التقوى » .

فعج الناس له بالدعاء . ثم قال :

« يا أهل الكوفة ، إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلح بهم صحبتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم تنتظرون ، وإليه تتشوقون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم ، وبيض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل إليكم السلطان ، وعزّ الإسلام ومن عليكم بإمام منحه العدالة وأعطاه حسن الإيالة ، فخذوا ما آتاكم الله بشكر ، والزموا طاعتنا ، ولا تخدعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم ، وإن لكل أهل بيت مصراً ؛ وإنكم مصرُنا . ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبدالله بن محمد - وأشار بيده إلى أبي العباس - فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم - عليه السلام - والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا » .

والخطبتان كلتاهما تتضمنان الثناء على أهل الكوفة وكيف أنهم قد وقفوا إلى جانب الحق حتى عزَّ وعارضوا الباطل حتى ذوى وذل ، وتوضحان كذلك ما لقيه العلويون على أيدي بني أمية وعمالهم من البغي والظلم حتى سلطهم الله تعالى عليهم . ليستردوا الحق المغصوب ، ويستعيدوا العدل المسلوب إلى آخر ما جرى على لسان أبي العباس ، وداود ابن علي .

وهكذا بلغت الدعوة العباسية هدفها ، وأدركت غايتها ، فأسقطت سلطان الأمويين ، وسلبت عرشهم ، وتربع بنو العباس على أريكة الخلافة في يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الآخر . ليتعاقبوا عليها خليفة إثر

خليفة، حتى العام السادس والخمسين بعد الستمائة من هجرة النبي - عليه الصلاة والسلام - .

وقد تعقب العباسيون بني أمية بعد أن تمت لهم البيعة ، فقتلوا منهم من قتلوا، وشردوا منهم من شردوا .

وقد كنت أريد أن أسلط الأضواء على ما جرى من ذلك في العراق، والشام، وغيرهما من شتى أقاليم دولة الإسلام، غير أني رأيت أن أكف القلم عن ذلك لشناعتة من جهة، وأنه قد وقع بعد قيام الدولة العباسية الذي جعلته هدفاً لهذا البحث من جهة ثانية .